الفصل الأول

الإسلام كقنبلة بشرية
هل الإرهاب دين الإسلام؟
أهلة التطرف الإسلامي
آليات التطرف والاعتدال في الإسلام
الإسلام والغرب: الترهيب المتبادل
ماذا يفعل المسلمون في الغرب؟

obeikandl.com

الإسلام كقنبلة بشرية

علينا أن نسأل أنفسنا، مَن الذي دفع بمثقفي الغرب وفنانيه إلى رسم الإسلام الموروث دينًا وثقافةً عن الآباء والأجداد على هيئة قنبلة بشرية موقوتة ينذر خطرها بنسف كل مَن هو حولها كائنًا من كان؟ فهل اندفاع هؤلاء المثقفون والسياسيون الغربيون في تشريح الإسلام، ولا نقول نقده، انطلاقًا من ثقافتهم التي تبني على الشيء ومقتضاه، أم أنها ردة فعلهم المباشرة التي خرجت عن سياقاتها الطبيعية في تناول الإسلام، ليس بصفته دينًا، بل كحالة إيديولوجية تبعث على "العنف" وتحض عليه انتقامًا لاختلال موازين الحضارة وانحراف بوصلتها باتجاه عواصم الغرب.

وثمة سؤال يطرحه الكثير من العقلانيين حول الجدوى من استعداء الغرب، لطالما أنه يصنع الحياة، ويقدم للإنسانية كل ما تحتاجه من ملبس ودواء ومواصلات واتصالات، وطالما أن الله قد جعل من الإنسان خليفة له في الأرض ليعمرها، فإذا ما كان إنسان الغرب هو الخليفة، وفقًا لموازين الحضارة ومؤشراتها، فهل من العقل أن يستعدى ذلك الخليفة؟.

بهذا الاتجاه المُؤسَس على موازين الحضارة، تبدو حضارة الغرب، ولطالما كانت لها الغلبة ورجحان الكفة، باعثةً على الحياة وصانعةً لها، بما يقابلها في الكفة الأخرى، حضارة الإسلام، لما هي في حالة تقهقر وانزواء دائمين، إلا ما خلا من تراثها المتمثل باللغة وآدابها ونصوصها، تبدو وكأنها صانعة للفوضى على هيئة

قنبلة بشرية، تحملها رؤوس المتشربين بإيديولوجية الإسلام كدار حرب وولاء وبراء، وليسوا كمسلمين مؤمنين بعقائده وأركانه.

وإذا ما كانت الحضارة باعثة على الصراع حقًا، فإنه تثار حولها اليوم العديد من علامات الاستفهام، لأن القول بحضارية الإسلام، لها ما يقابلها في الضفة الأخرى، من رفض يصل إلى حدود النفي المطلق، لما يسمى بحضارة الإسلام أو المسيحية، أو أي دين آخر، وذلك لأن الأديان لا تنتج الحضارة، قدر ما ترثها من الشعوب والأقوام الأخرى، كما في الإسلام.

ووفقًا لذلك التشريح العلماني، غدا الإسلام من الناحية النظرية في منحنيين، منحنى إيديولوجية الإسلام، ومنحنى عقائدية الإسلام، وفي هذا تقسيم عملي للإسلام، قد لا يتناسب مع ما لدى الإسلاميين من شروحات مناقضة، ترى في هذا التقسيم النظري والعملي مجرد تعريف كهنوتي لكلمة الدين، وكصلة روحية مبتوتة الصلة بالسياسة. ونظرًا إلى غياب التواصل الفكري والثقافي بين عموم المجتمعات الغربية والشرقية، فإن نظرة تلك المجتمعات الغربية للإسلام، متشابكة من حيث خلطها بين المنحنيين السالف ذكرهما، لينتهي بها الحال إلى تصوير الإسلام كقنبلة بشرية موقوتة، خطرها يتعاظم يومًا بعد يوم، ولا سبيل لنزع فتيلها إلا بحربها الكونية على ما تسميه "الإرهاب". وهذا يقودنا إلى سؤال الأخلاق، وفيما إذا كانت الأخلاق الإنسانية تبرر هكذا تقسيم اعتباطي للإسلام، فضلاً عما إذا كانت تبرر أيضًا ذلك السلوك الانتحاري، الذي يبدو أكثر اعتباطًا، ربما لأنه يعطي المقدمات الأساسية لمثل ذلك التقسيم، الذي يدفع الجميع ثمنه بلا استثناء، لا سيما وأن الأخلاق لدى الغرب، تختلف عما هي عليه لدى الشرق، فالأخلاق الغربية مستمدة أصلاً من جملة

القوانين والتشريعات الوضعية، كشرعة حقوق الإنسان، وليس من الدين، فهي تلتقي في محتواها العام مع الدين، لكنها ليست نابعة منه، كما هو ظاهر في الإسلام.

وسواء بررت الأخلاق ذلك التقسيم أم لا، فإننا لا نستطيع أن نجزم بشكل قاطع، موقف الأخلاق النهائي، لذا يغدو من المستحسن، على الأقل في هذه المرحلة، تحييد الأخلاق بالحد الأدنى، التي على ما يبدو لم تستطع حتى الآن أن تفعل فعلها الضابط للسلوك البشري في غابة صراعه الأسطوري، رغم مما يقدمه الإسلام من أخلاق في الدين والدنيا وفي المعاملات والعبادات، وما تعج به جامعات الغرب من العلوم الإنسانية في مجال الأخلاق وأصولها ونظرياتها الأولى.

ولاستحالة الركون إلى أرضية محددة، وضيق الهامش في الإشارة إلى قلب المشكلة ولبها، نعود مرة أخرى إلى السياسة، وقد يقول قائل، لا مناص من السياسة كواقع حتمي لكل صراع بشري، ولا بد من العودة إليها في كل الأحوال لفهم طبيعة الصراع الأبدي والوقوف عند أسبابه ومسبباته.

وإن كانت القضية في جوهرها مرتبطة بالسياسة، فمن المنطق وليس بشيء من التبرير، اعتبار كل ما تمارسه الجماعات الإسلامية الحالمة ببسط إيديولوجيتها من خلال ما تمارسه من أعمال مسلحة على الإسلام الآخر، "إسلام المجتمعات"، ينضوي في إطار الصراع على صوابية فكرها المتشرب بإيديولوجية مغالية في إيمانيتها الماضوية، لدرجة نسفها للآخر وتعطيل سعيه الحثيث إلى الحياة.

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما الذي يدفع تلك الجماعات المسلحة لكي تتخذ من الجبال والكهوف والمغاور، ميداناً لشن غزواتها نحو الإسلام الآخر؟

رب قائل يقول، إنها أموال النفط، التي تنبع من الشرق الأوسط والتي تشكل الشريان الرئيسي، الذي تتغذى عليه تلك الجماعات المسلحة في حربها ضد الحياة.

ومن غير المنطقي أن يتساوى "إسلام الجبال" مع "إسلام المجتمعات"، أو أن يحمل أحدهما وزر أعمال الآخر، فتواصل الحوار مع الآخر، من شأنه أن يزيل الغموض والإبهام المتكون عن صورة الإسلام كدين وفي الوقت نفسه تعريفه كثقافة حياة، بدلاً من تعريفه النمطي كقنبلة بشرية تنتظر ساعة الصفر، كما يحول دون ذلك التقسيم الاعتباطي، وأما انعدامه، سيعني مزيداً من التقسيم والتشريح الذي ينتهي به المطاف إلى صورة قنبلة بشرية.

obeikandl.com

هل الإرهاب ديدن الإسلام؟

لا تبدو المقاربة بين الإسلام والإرهاب صائبة من كل الزوايا، فليس كل فعل إرهابي، مهما اشتدت حركته واتسعت دائرة تأثيره، يعني العنف، حينها يمكننا اختصار المسافة الفاصلة بينهما، والقول إن العنف هو ديدن الإسلام، ويتضح العنف من خلال نتائجه التدميرية على المادة قبل الروح.

ففي إحدى زوايا الربط بين الإسلام والإرهاب، أنه يعني الردع، أي رد الفعل إلى أساسه الذي يحاول الارتداد منه، وبالتالي منعه من التحقق، فيما يشبه الترهيب النفسي الذي يحول دون تحقيق أهدافه.

فالارتكاز على معنى واحد، قد لا يعفي الباحث من تهمة التحيز إلى تبني رؤية دون الأخذ أو الإشارة إلى الرؤية الأخرى، لهذا فإن الاشتغال على أحد المعنيين السالفين، لا بد أن يؤدي إلى المعنى الآخر، وإلا فأن التحيز هو التهمة الجاهزة دائمًا في كل زمان ومكان.

ولطالما أشرنا إلى عدم صوابية الربط بين الإسلام والإرهاب، فهذا لا يعطي مسبقًا شهادة البراءة، لكلٍ من المفهومين السابقين، وعلاقة بعضهما ببعض، ولعل صور المعارك الدامية في الصومال بين الأحزاب والجماعات الإسلامية، وكذلك التفجيرات المدمرة في جمهورية باكستان الإسلامية، تقدم البرهان القاطع من تلقاء نفسها، ودون أدنى مواربة أو محاولة لتجميل الصورة أو الالتفاف على حقيقتها، وذلك بأن العنف هو الذي يتحكم بإدارة دفة الصراع بين الإسلاميين أنفسهم، وأن القول الفصل لمن يمارس العنف بصورة أشد

دموية على خصمه، باعتبار أن الدم يستسقي الدم، وبالتالي فإن العنف يستسقي العنف في كل جولة من جولات الصراع.

غير أن هذا العنف، سواء كان في الصومال أو باكستان، يؤكد لنا أنه في اتجاه واحد، أي أنه صراع إسلامي – إسلامي، قبل أن يكون صراعًا إسلاميًا – غربيًا، ولو أنه يدعي "الجهاد" بدايةً، ثم لا يلبث أن يطلق النار على نفسه، فهل أن الأمر في أساسه يتعلق بالصراع على السلطة، كما حدث في الجزائر في مطلع تسعينيات القرن الماضي وفي أفغانستان إثر تدخل الولايات المتحدة على خلفية هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وأن كان جله تحت شعارات الإسلام، أم أنه لا يعدو كونه سلوكًا مغروسًا في كينونته المفطورة على العنف، سواء قبل الإسلام أو بعده.

في الواقع أن الإجابة على السؤال السابق، قد تبدو معقدة ومتشعبة في آنٍ معًا، لأنه إذا كان أساس هذا العنف، مجرد الصراع على السلطة، فلا شيء يبرر ربطه بالإسلام، ففي أصقاع إفريقيا تدور صراعات شتى على السلطة، ولنا في جنوب إفريقيا أوضح مثال، وكذلك الحال في آسيا، إذا ما أخذنا سيرلانكا في الحسبان.

كما لا نستطيع الجزم أن العنف المتولد في أوساط المجتمعات الإسلامية أو إلى ما عداها من مجتمعات مجاورة، عائد إلى التكوين النفسي والجيني لدى الإنسان الشرقي، دون الإنسان الغربي، أو إلى التنشئة الدينية للإسلام بعينه، فكل الديانات السماوية والأرضية، فيها من الرحمة ما يشي بالسلام الكامل، وأيضًا فيها من الدعوة الصريحة إلى العنف والتي تتضح فيها نصوص كتبها المقدسة، ما ينذر بأبدية الصراع، ولسنا في وارد استعراضها في هذا الصدد.

وقد يجري السؤال، ردًا على ما جرى ذكره، إذن لماذا انتفى العنف كليًا من المسيحية في أوروبا، وظل يفعل فعله في الإسلام؟ ليس لأن أوروبا عطلت سلطة الكنيسة، وأبقت أبوابها مفتوحة لمن شاء الدخول أو الخروج منها دون حسيب أو رقيب، في حين بقيت المساجد الإسلامية (المسجد الأحمر في باكستان) بؤرة لكل نماذج العنف، بل لأنها أنهت أحلام رجال الدين في التربع على السلطة من خلال الكنيسة، وقد يفهمها البعض هنا، بداية ثورة فصل الدين عن الدولة، من خلال الركون إلى العلمانية السياسية والقانونية والاجتماعية، كما في فرنسا وألمانيا وبريطانيا، فهذه الدول الثلاث، وأن كانت قد مارست العنف تجاه بعضها، كما فعلت ألمانيا النازية ضد فرنسا، أو تجاه العالم الآخر، مثلما فعلت بريطانيا في الهند، وفرنسا في إفريقيا، فإنها لم تمارسه في الإطار العام باسم الدين أو المذهب، حتى لو ادعى البعض ذلك، بقدر ما مارسته بفعل تحقيق مصالحها السياسية والقومية، بعكس حال المجتمعات الإسلامية التي لم تستطع أن تحيد الدين في كل صراعاتها الداخلية، كما في أفغانستان، أو الخارجية كما حصل إبان الحرب العراقية – الإيرانية، التي دامت لثماني أعوام، وحصدت من الأرواح ما يزيد عن المليون إنسان، ومهما حاول البعض توصيف هذه الحرب وربطها بأسباب عرقية، وإضفاء الطابع القومي عليها، كصراع عربي – فارسي، إلا أن أسبابها المذهبية، التي حملتها الثورة الخمينية في بداية عهدها في طهران عام ١٩٧٩، هي التي بعثت وما زالت تبعث على العنف، يوازيها في المقابل إيديولوجية الولاء والبراء كعقيدة سياسية أكثر منها دينية، والمعمول بها من قبل الجماعات السلفية، بحيث أن كل هذا الصراع الإسلامي – الإسلامي يرسخ في الذهن، لطالما كان العنف نابعًا من الإسلام نصًا من خلال الاستناد على بعض الآيات

القرآنية، وروحًا من خلال الاستعداد الدائم للموت في سبيل النجاة والخلاص من مباهج الحياة الدنيا.

أما الزاوية الثانية التي تعني الردع بما يخالف معنى العنف، والردع في حقيقة أمره يعني الاستعداد، على قاعدة أن الاستعداد للحرب يمنع الحرب، فكل مسلم، فردًا كان أو جماعة، يعتبر نفسه مطالبًا بالاستعداد والتهيؤ في أوقات الحرب، عملاً بسورة الأنفال ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ وسواء عنت العنف لدى البعض، أو الردع لدى البعض الآخر، فإن تيارًا واسعًا من المسلمين من ذوي الاتجاهات المحافظة، يرفضون رفضًا قاطعًا وصمهم بالعنف والإرهاب، وسواء اعترفوا بفقه ذوي الاتجاهات الراديكالية، أم لم يعترفوا في تمثيلهم للإسلام، فإنهم بين حجري رحى العنف الذي يمارس باسمهم، والردع الذي لا يستطيعون من خلاله وقف طاحونة العنف، ولأنهم لا يستطيعون فإنهم متهمون في توفير المناخ الملائم في توفيره.

كما أن الإيمان بمبدأ الفرقة الناجية من عذاب الآخرة، وسع شقة الخلاف بين المسلمين أنفسهم، بحيث صار كل مسلم ينظر في مرآة أحواله، بأنه هو الناجي، وأنه بريء مما قد ينسب إليه من أفعال يرتكبها أبناء ملته، فلا أحد يحاسب بالنيابة عن أفعال غيره.

مبدأ الإيمان بالفرقة الناجية، جعل قضايا التكفير والتطرف وما تنطوي عليه من أفعال عنفية، ككرة النار الملتهبة، يتقاذفها المسلمون فيما بينهم، هربًا من تحمل مسئولية ما آلت إليه أمور مجتمعاتهم من الغرق في مستنقعات دامية، وخوفًا من أن تحرق بلهيبها المستعر، من لم يحترق بنارها بعد.

أهلة التطرف الإسلامي

أول ما يتبادر إلى ذهن المرء، عندما يدقق في ظاهر الدين، سيجد نفسه أمام صور شتى، أبهاها وأخلدها في الذاكرة، صورة الصليب والنجمة والهلال، ومن بعدها يبدأ في طرح التساؤلات، حول الغاية من وجود هذه الصور في حاضر الإنسانية بقديمه وحديثه، لتنتهي تصوراته وتخيلاته إلى التسليم برمزية وشعارية كل صورة وما ترمز إليه من علائم القوة لدى اليهود والألم عند المسيحيين والرفعة عند المسلمين.

ننسى أحيانًا في غمرة التقديس لهذه الرموز، الانتباه أن خلفها جرت صراعات عقيمة وعميقة في آن، ولا زالت تلك الرموز تقسّم البشرية بسيف السياسة والمصالح إلى شرق وغرب، تقدم وتخلف، وبالمنحنى الديني إلى دار سلام وحرب، متشدد ومعتدل، فالكل في هذا الغمار، يريد أن يجعل من ذاك الرمز كيانًا سياسيًا يعبر عن ذاته في بقعته الجغرافية المحددة تاريخيًا سواء في أوروبا "الاتحاد الأوروبي" أو في الشرق الأوسط "الأمة الإسلامية".

ولأن التطرف والتشدد هما السمة الأبرز لمظاهر العصبية، وأحد أركانها الرئيسية، فإن كل الأديان، فيها من التطرف ما يزيد عن تطرف اللادينيين، ويصل الأمر بالمتدينين، ونقصد بهم المتطرفين في فهم الدين والحياة بطريقة هرمية مقلوبة، بالجزم نحو انعدام وجود من هو غير ديني، مستندين في جزمهم هذا إلى الفطرة التي فُطِرَ عليها الإنسان لحظة خلقه واتصاله بالحياة.

من الممكن القول، إن تلك الفطرة وإن كانت موجودة في جينات البشر، فإنها النواة التي سيقوم عليها بناء الشخصية، وهي أيضًا التي ستحدد السلوك الفردي والجمعي في التماس طريق الخير والشر، أو التطرف والاعتدال وما بينهما مع المحافظة على المسافة الفاصلة من الدين دون الخروج عنه.

فلا يمكن القول، إن المعتدلين ليسوا كلهم أو بعضهم لا دينيين، وبالمقابل الجزم بأن كل متطرف هو ديني متعصب في إيمانيته، فما يحدد التطرف والاعتدال في شخصية الإنسان الشرقي أو الغربي، ليس المعيار الديني، بقدر ما تحدده المسافة الاجتماعية الفاصلة بين التعصب لشهوات الدنيا وللذات الآخرة، فليس هناك ما يبرر لأي إنسان كان، أن يؤذي أخاه الإنسان في جسده وروحه لمجرد أن يحقق من خلاله شهواته ونزواته في الدنيا، كما لا يبرر لمسلم أن يقتل يهوديًا، أو ليهودي أن يقتل مسلمًا، فقط لأن الأول يجد في الثاني مغنمًا لدخول الجنة، والثاني يرى الأول أدنى منه قدرًا وأقل حقًا في الحياة.

وما ينسحب على اليهودي والمسلم، ينسحب كذلك على المسيحي وعلاقاته المتعددة مع نظيره المسلم في الشرق واليهودي في الغرب، والعلاقة نفسها بسلبها وإيجابيها، هي ما يؤسس لنمو روح التطرف وتغذيه بوقود المصالح المتضاربة والمتباينة، ولا يعني التطرف هنا، المقاومة أو رد الفعل، كونه غير مقنن بمنهجية سياسية وآلية عمل تنظم أهدافه ومراميه، بل هو مجرد أفعال غير منضبطة بضوابط الأخلاق، فهو أقرب ما يكون إلى الهمجية والعنجهية.

إذن ليست النواة ولا الفطرة من المحددات الرئيسية للتطرف، وإلا فإننا أمام مليارات المتطرفين، لكن ما يحددها، كما سبق وأشرنا، تلك العلاقة السالبة أو الموجبة بين دين وآخر، وبالتالي بين

مجتمع وآخر، وقد يكون أو لا يكون الحوار هو السبيل الوحيد لإنهائها، لا سيما إذا ما جرى القبول بالحوار أو رفضه.

وللتدليل على أن الفطرة ليست نواة التطرف، وكي لا يفهم من تدليلنا هذا، أننا تعمدنا تعميم التطرف على سائر الأديان، فإنه لا يسعنا في هذا المقام سوى إسقاط الضوء على واقع الصراع السياسي بين المسلمين أنفسهم كدول وجماعات سياسية ومذهبية.

فما يغذي التطرف بين المسلمين أنفسهم، ليست قضية التكفير أو غيرها من القضايا الفقهية مثار الجدل، إنما الصراعات السياسية المستديمة عبر التاريخ، وقد يجادل البعض هنا أن الأمر عائد في جوهر العقيدة التي جاء بها الإسلام أو إلى جملة التعاليم التي خرج بها القرآن، أي الإصرار على أن الأساس يكمن في الفطرة، ولكن من دون الاعتراف بها.

والسؤال المطروح هذا اليوم، أليست الفطرة التي فُطِرَ عليها المسلم "السني" هي ذاتها التي فُطِرَ عليها المسلم "الشيعي"، إذن، ما الذي يعمل على تأجيجها؟ وقد يقول قائل، إن الفتاوى التي يتفوه بها المشايخ على الطرفين تحت مسميات درء الفتنة أو إشعالها، هي ما يؤجج نار التطرف.

ويفوتنا أحيانًا أن تطرف القاعدة وحركة طالبان مركزٌ على المجتمعات "السنية" أكثر منها على "الشيعية"، وأن صراع مجاهدي خلق مع النظام الخميني في إيران، هو صراع شيعي – شيعي صرف، وهنا لا تلغى الصراعات الجانبية بين مَن هو سني وشيعي، وهي في مجملها صراعات سياسية أكثر منها مذهبية، ونذكر بالعلاقة البينية غير المؤكدة بين "تنظيم القاعدة" والنظام الخميني سواء في العراق أو أفغانستان، وهي علاقة متضادة إيديولوجيًا وعقديًا، وبالعلاقة المؤكدة بين النظام الخميني وحركة "حماس"

ذات التوجه الإخواني في فلسطين.

فما نحن عليه اليوم من صراعات سياسية تجوب أرجاء الشرق الأوسط، باتت تشكل في مجموعها محاور سياسية تتقاطع مع بعضها، كما هو الحال بين المحور الإيراني "الديني" والمحور السوري "العلماني"، أو تتصادم مع بعضها الآخر، كعلاقة المحور الأخير مع مصر أو دول الخليج، وحجة هذا المحور وغيره، تعزيز (المقاومة) و(دعم جبهات الصمود).

إن المحاور السياسية، باتت اليوم المصدر الرئيسي لأهلة التطرف الممتدة شرقًا وغربًا وفي كل الاتجاهات، وهي أهلة ومحاور تعمل ضد بعضها البعض، خلف غطاء الإسلام تارةً والسياسة تارة أخرى، بدءًا من جنوب فلسطين وانتهاءً بشمال اليمن.

openkandl.com

آليات التطرف والاعتدال في الإسلام

إن التطرف والاعتدال في الإسلام نقيضان لا يلتقيان، فلا يشي هذا الاستنتاج أن الإسلام بات محشورًا في زاوية ضيقة، فإما أن يكون بسلوك أفراده رمزًا للتطرف أو للاعتدال، ولا خيار ثالث يمكن أن يتوسط بين هذين النقيضين.

فكما أن اعتدال بعض المسلمين، هو في أساسه اعتدال سياسي أكثر منه ديني، يتأتى في سياق ممارساتهم السياسية والاجتماعية وحتى الثقافية، كذلك الأمر بالنسبة للتطرف، الذي لا ينبغي أن يظهر إلا من خلال صورة السياسة، ولو أنه غالبًا ما يُرى على صورة الدين، لارتباطه العميق بصورة الأشخاص (المسلمين) الذين يقومون بممارسته.

لطالما فهم الاعتدال في الإسلام على أنه اعتدال في السياسة، فمن المحتم أن يفهم التطرف على أنه تطرف في الدين، مع العلم أن التطرف والاعتدال نقيضان لا يلتقيان في الإسلام، إذا ما أخذنا بفرضية عدم التقاء السياسي "الاعتدال" بالديني "التطرف"، فإن هذه التوصيفات الجاهزة، لا تعطينا حكمًا قاطعًا ومبرمًا حول حقيقة التطرف والاعتدال في الإسلام، قدر ما تعطينا أحكامًا مسبقة يعوزها المنطق السليم.

وبالعودة إلى تحديد أسباب التطرف غير التقليدية المعمول بها أكاديميًا، والتي تبين أنها لا تقنع أحدًا، بمن فيهم مطلقيها الغربيون، لتبين لنا ثانية، أن العلاقة السلبية بين دين وآخر، بفعل

التراكمات والرواسب التاريخية العميقة بينهما، تدفع نحو انتهاج منهج التطرف أكثر مما تدفع إلى الاعتدال، والإسلاميون أنفسهم يقرون ذلك، عندما تتناهى إلى مسامعهم خطابات سياسية تحمل في طياتها التبشير بحرب صليبية جديدة، فإن ذلك سيدفعهم إلى أقصى درجات التطرف، ليس دفاعًا عن دينهم وحسب، بل عن كيانهم السياسي والديني في آن.

لا نشك لحظة واحدة، أن للتطرف أسبابه الأخرى، بل ومدارسه التي ينهل منها جملة الأسباب التي تدفع به نحو التطرف، فالإنسان المتطرف، ليس هو الإنسان المسلم، وبالطبع ليس هو المسيحي، لأنه لو كان هذا الإنسان المتطرف مسلمًا، لانعدم وجود نقيضه المعتدل، سيما وأن الغرب يقر بوجوده ويسعى إلى دعمه والتعاون معه في شتى مجالات الحياة، مثلما يسعى إلى محاربة نقيضه المتطرف.

كما أن الإسلام، وهذا ليس دفاعًا عن أي مذهب أو عقيدة، ليس كله على صورة واحدة، فصورة المسلم الأوروبي تختلف اختلافًا عميقًا عن صورة المسلم الإفريقي أو الأسيوي، وهو ما يطرح سؤالاً عميقًا، لماذا يختلف سلوك المسلم الأوروبي عن نظيره الأسيوي؟ وأدل جواب نراه في صورة الإسلام الأوروبي الذي تمثله تركيا، مقابل صورة الإسلام الأسيوي الذي تمثله إيران، وبطبيعة الحال ليست المسافة التاريخية والجغرافية بينهما بعمق المسافة الشاسعة بين الشرق والغرب.

كل هذا يؤكد بصورة شبه نهائية، أن تطرف الفرد المسلم أو الجماعة، لا يرتبط ببقعة جغرافية معينة، وإن ارتبط نتيجة لظروف سياسية راهنة، فإنه لا يمكن أن يمتد تأثيره الأيديولوجي إلى البقاع الأخرى، لأن التطرف لا ينتقل على هيئة أفكار، بقدر ما ينتقل على صورة أفعال تترجم أفكارها على الأرض، وهنا تجدر

الإشارة إلى أن المسلمين هم الأكثر تضررًا من ذيول التطرف والتطرف المضاد، فما يمارس على أرضهم من سياسات عالمية، لها جملة اعتباراتها ومصالحها التي تتعدى الحدود، وقد أسهمت في استيلاد ذلك الكم الهائل من الأفكار التي أنتجت في نهاية الأمر أفعالاً أقل ما يقال عنها إنها متطرفة ضد نفسها، أي ضد محيطها المحلي، وضد الآخر.

ولعل مكمن الخطورة العميقة يتمثل في التطرف المضاد الذي يستهدف الداخل قبل الخارج، أو أنه يستهدف الخارج من خلال الداخل، كما حصل في باكستان على مدى العقود الماضية.

إن المعركة الأساسية اليوم لا تدور حول القيم والأفكار، بين مَن يقدس ثقافة الموت ومَن يؤمن بثقافة الحياة، إنما تدور رحاها، بين مَن ينتهج نهج التطرف سبيلاً إلى إثبات الذات بالقوة، ومَن ينهج الاعتدال دفاعًا عن تلك الذات، والإسلام بواقعه الراهن هو الخاسر الأكبر من جراء تلك المعركة غير المتكافئة.

فحقيقة أن الإسلام دين الوسطية، لم تعد تقنع المسلمين أنفسهم، فما بالنا بغير المسلمين، أو من لا وصاية على عقله، وبقدر ما يزداد حيز التطرف، يتناقص حيز الاعتدال ويضمحل، والعكس بالعكس، فالعلاقة بين التطرف والاعتدال باتت علاقة طردية، كما أنها علاقة واقعية تستقطب الإسلام بين جنباتها استقطابًا حادًا.

ناقل القول، إن التطرف والاعتدال، ظاهرتان سياسيتان أكثر منهما دينيتان، فلهما شروطها السياسية اللتان يعملان في حقلها، والتطرف كما هو موجود في السياسة لأسباب دينية، موجود أيضًا في الدين لأسباب سياسية، فكما أن السياسي يتطرف في سياسته عندما يقترب من الدين، كذلك الحال بالنسبة للديني

الذي يتطرف في دينه عند اقترابه من السياسة.

من هنا نخلص إلى أن النصوص وحدها لا تولد التطرف آليًا، بل قد تدفع إليه بسبب تلك النصوص وأحكامها، فلو كان القرآن وحده ينضح بآيات العنف، فإن في الأديان الأخرى ما يزيد عنه أو يساويه في الدعوة إلى انتهاج العنف.

وهنا أيضًا تثار إشكالية عميقة الصلة بموضوعي التطرف والاعتدال، فثمة مَن يربط مسألة الاعتدال والتطرف في الإسلام، بمدى التزام الفرد أو الجماعة بتطبيق تعاليم الدين، أي بالجرعة المأخوذة من الدين، فكلما كانت الجرعة أقل (سوريا ولبنان نموذجًا) فإن الإسلام يبدو معتدلاً ومقبولاً، بالمقابل كلما كانت الجرعة المأخوذة من الدين أكبر (طالبان، الصومال، السعودية) فإن الإسلام سيظهر عندها بشكله المريع والمتطرف.

لكن الأكيد أن العامل الديني عندما يتقاطع مع العامل السياسي، فإن التطرف يتولد من تلقاء نفسه، وكلما ابتعد أحدهما عن الآخر، ساد الاعتدال بدل التطرف.

الإسلام والغرب: الترهيب المتبادل

ظلت العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، مشوبة بالقلق والتوجس، فأوروبا كجزء مكون من مكونات العالم الغربي، تسعى ما استطاعت إلى الحفاظ على هويتها الثقافية وموقعها السياسي المتقدم في عالم اليوم، وتنظر بعين من الشك والريبة إلى كل من هو غير غربي، وقد يذهب البعض في الاتجاه المعاكس من ذوي النزعات الدينية للقول نحو كل من هو غير مسيحي.

وأيًا كانت النظرة الغربية إلى الإسلام، ونظرة الإسلاميين إلى الغرب، لا بد لنا من التفريق بين نظرة المسلمين ونظرة الإسلاميين، فالنظرة الأولى، تتصف بالشمولية، حيث لا يوجد أدنى تمايز أو تحزب في نظرتها غير الأيديولوجية، وإذا جاز التعبير، يمكن لنا وصفها بالنظرة المحايدة، بعكس النظرة الثانية، أي نظرة الإسلاميين، التي تشربت بالأيديولوجيا السياسية، أكثر مما تشربت بأيديولوجيا الدين، وشكلت لاحقًا تياراتها وجماعاتها الدينية – السياسية، كردة فعل مباشرة على الأنظمة السياسية القائمة في معظم الدول العربية والإسلامية، وغير مباشرة على الغرب الأوروبي الذي نعتته ولا زالت برأس الأفعى أو قلب المؤامرة، التي حلت عليها وعلى مشروعها الشمولي، مشروع الخلافة الإسلامية، نتيجة سنوات الاحتلال والاستعمار، حيث وأدت تلك السنوات مشروعها التاريخي المتمثل في إعادة إحياء الخلافة من جديد، بعدما غربت عنها الشمس في اسطنبول.

وبأي حال، يمكن لنا أن نصف نظرة الإسلاميين، بالنظرة الملتبسة، فهي لا تعي طبيعة أهدافها النهائية، وهو ما أدى بدوره إلى خلق حالة من الالتباس سكنت في دوائر عقل الغربي، وقد ظهر هذا الالتباس في صور وأشكال عدة، بعضها جاء على هيئة رسوم كاريكاتيرية (أزمة الرسوم الدنماركية) أو على شاكلة أفلام تسجيلية (فيلم النائب الهولندي غيرت فيلدرز) أو من خلال الاستفتاء على حظر بناء المآذن في سويسرا.

ويتلخص موقف الإسلاميين النهائي من اتهام الغرب لهم بالإرهاب، سواء كانوا راديكاليين أو إصلاحيين، بالاتهام المماثل، بل وتحميلهم (الغرب) مسئولية العنف والفوضى في شتى أصقاع العالم الإسلامي، فرأيهم في ذلك، أن ما يجري في الدول الإسلامية (أفغانستان، الصومال، العراق) هو من صنيع الدول الغربية، لكي تشغل المسلمين ببعضهم البعض.

هذا عن نظرة الإسلاميين إلى الغرب، لكن بالمقابل، ماذا عن نظرة الغرب إلى الإسلاميين؟ الجواب عن ذلك السؤال، نجده لدى بعض الأنظمة العربية ولدى الغربيين أنفسهم.

فبالنسبة إلى الأنظمة العربية، تنطلق نظرتها من تحميل الغرب وحده مسئولية النفخ في قربة الإسلاميين، عن طريق احتضانهم وإيوائهم في أكبر عواصم الغرب، وفتح الباب أمامهم ليقولوا ويفعلوا ما يشاءوا تحت يافطة حقوق الإنسان وحماية الحريات العامة، قد تكون هذه النظرة صائبة في بعض وجوهها، غير أن الجزء الأكبر من المشكلة يقع على عاتق الأنظمة العربية التي لم تنجح حتى الآن في احتواء ظاهرة الإسلاميين الآخذة في التزايد والتصاعد على حساب الظواهر الاجتماعية الأخرى.

أما نظرة الغربيين، فقد بات يعبر عنها اليوم طيف واسع من ذوي الاتجاه اليميني، والتي ترى أن الإسلاميين المتشددين، الذين يتخذون من الدين وسيلة لنشر أفكارهم المتطرفة، باتوا يتوسعون كبقعة الزيت في كل بقاع الأرض، وأن انتشارهم أشبه بانتشار الخلايا السرطانية في الجسم السليم، لهذا كله، لن تفيدهم الهجرة إلى أوروبا وأمريكا، لأنهم يحملون بذور فنائهم معهم، ما داموا يتمسكون بآيات تحض على العنف، وأن فكرة "الاحتلال الإسلامي" لأوروبا لا تغادر مخيلتهم، رغم أن أوروبا تستقبلهم وتمنحهم المأوى والأمن والجنسية والعمل والتعليم المجاني، لكنهم مع ذلك، يفكرون باحتلال وثقب السفينة التي تحميهم.

فالمحصلة التي وصلنا إليها اليوم، نتيجة العلاقة غير السوية، بين الإسلاميين من جهة، والنظم العربية والغرب من جهة أخرى، تنذر بمزيد من التباعد بين الشرق والغرب، وفي الوقت ذاته توسع دوائر الصراع والصدام إلى أقصى درجة يمكن أن تصل إليها، والخاسر الأكبر في هذا الصراع الأجوف، المجتمعات الشرقية التي دفعت ولا زالت تدفع ثمن هذا الصراع من كيانها الثقافي والسياسي، الذي أصبح مطية للإسلاميين وادعاءاتهم بالدفاع عنه. إن التبعثر القائم في أهداف الإسلاميين، ألحق مزيدًا من الضرر في واقع مجتمعاتهم التي انطلقوا منها، أكثر مما ألحقته النظم السياسية المستبدة، وأكثر مما حاكه أو يحيكه الغرب (وفق تعبير الإسلاميين) وذلك حفاظًا على مصالحه الحيوية، فلا يعرف الإسلاميون في أي طريق يتجهون، الشيء الوحيد الذي يعرفونه أنهم ونتيجة التباعد العميق بين أفكارهم ومجتمعاتهم، يتجهون إلى المجهول في نظر مجتمعاتهم وإلى التطرف في نظر الغرب. فإذا كانت الخلافة الإسلامية أسمى أهدافهم، فهل من المعقول أن

الغرب الذي صنفها ضمن أخطر دراساته للمسألة الشرقية، التي أخذت وقتًا وجهدًا طويلين من قدراته حتى تمكن أخيرًا من احتوائها، أن يعمل اليوم على إعادة إحيائها؟.

ما يسعنا التأكيد عليه في هذا المقام، أن الإسلاميين فقدوا البوصلة في منتصف الطريق وليس في نهايته، مما يضفي على المسألة مزيدًا من التعقيد والتشابك، فليست مشاريعهم من ما يتناسب مع طبيعة مجتمعاتهم التي تسعى إلى المزاوجة الدائمة بين الأصالة والمعاصرة، ولا مع تحولات الحاضر ومتطلبات المستقبل، وإذا ما استمر هذا الالتباس بينهم وبين الآخر، فإننا قد نكون أمام تساؤلات عدة، أهمها سؤال الغرب، ماذا يفعل الإسلاميون لدينا، أو بصيغة أخرى، ماذا فعلوا؟.

حينها سنكون أمام فعلين متعاكسين في الاتجاه، لا أحد يستطيع تقدير تداعياتهما على مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب، ولعل ما يعزز من إمكانات طرح مثل هكذا أسئلة مصيرية، اشتداد ساعد اليمين الغربي بالتوازي مع اشتداد تجاهل الإسلاميين لخصوصية المجتمعات الغربية، الحاضن الأكبر لهم، فإننا سنجد أنفسنا في نهاية المطاف، أمام إرهابين متبادلين في المقدار والاتجاه نفسهما.

ماذا يفعل المسلمون في الغرب؟

إذا كان الغرب حريصًا على هويته الثقافية، كجزء لا ينفصل عن سماته الحضارية، فما الذي يدعوه إلى استضافة المسلمين واستقطابهم بكل السبل؟.

إذا كانت العناوين والشعارات التي يرفعها الغرب من جهة، والمسلمين من جهة أخرى، غير مقنعة ولا مرضية، بذريعة الدفاع عن حقوق الإنسان، والحق في اللجوء وحماية الحريات العامة، فلماذا الإصرار على ترحيل المسلمين وتصفية وجودهم؟.

بالأمس فتحت أوروبا أبوابها، أمام المسلمين الوافدين إليها، لسبب أو دونه، واليوم تسعى جاهدة إلى تصفية وجودهم أو على الأقل احتوائهم، عبر سلسلة من القوانين التي تثير استهجان المسلمين في بلدانهم الأصلية، كقضية النقاب في مصر، فما بالنا بإثارتها في فرنسا، أسوة بقضية الحجاب التي أثارت الزوابع والعواصف، فضلاً عن حظر بناء المآذن في سويسرا.

هل تنبه الغرب واستفاق مؤخرًا على حجم الخطر الإسلامي الزاحف إليه من كل حدب وصوب، ومعه رسائل الماضي وصراعات الحاضر، أم أن أوروبا لا تريد أن تهدأ في صراعها مع الآخر؟ ربما كان ذلك، لأجل استمرارية تقدمها العلمي وتطورها الحياتي، لذلك تراها تصنع عدوها الوهمي أو الحقيقي في الظرف الذي يناسبها.

فهل بات المسلمون في الغرب مجرد فزاعة، أو نمر من ورق، يستخدمه الغرب في إدارة الصراع وقتما يشاء؟.

الوقائع التي جرى رصدها على الأرض، تدل على هذا التصور الغربي نحو الإسلام، وهو تصور مشبع بعوامل الخوف والقلق، وتدل عليه أيضًا، سلسلة العمليات الإرهابية التي قام بها بعض المسلمين باسم الثأر لدينهم أو لمصرع إخوانهم في ساحات المعارك، إن في فلسطين أو أفغانستان.

هذا التصور الحقيقي والملموس، لا تواجهه الذهنية الغربية بطريقة مباشرة، أي كما لو أنها تتعامل مع ورم سرطاني خبيث، بل تعمل على تضخيمه إلى أقصى درجة ممكنة والتهويل من شأنه على واقع مجتمعاتها.

فلو أرادت القيادات السياسية في الغرب، بما تملكه من قدرات عسكرية وعلمية عظمى، أن تجتث الخطر الإسلامي داخل مجتمعاتها، لفعلت ذلك دون أدنى تردد، أو لأوقفت شريان الهجرة الواصل إليها على أقل تقدير، أو لقامت بتجفيف منابع التطرف والتشدد، إما بتعديل واقع سياساتها الدولية في تعاملها مع قضايا الشرق الأوسط، وبالتالي تسحب الذريعة، التي تدعو أفراده أن يكونوا أكثر تشددًا وتطرفًا في تعاملهم مع الغرب، أو أن تقوم باحتوائه احتواءً نهائيًا، باستنزافه الطويل الأمد، الذي يحقق لها ما تريده في ذهنيتها السياسية والاجتماعية، من خلال إعادة تصديرها لمصطلح الإسلاموفوبيا، في كل مرة.

وكما نجح الغرب في التعامل مع المسالة الشرقية المتمثلة بالصعود والهبوط المدوي للإمبراطورية العثمانية التي جاوزت حدود الغرب في بعض الأحيان، يستطيع هذا الأخير أن يضع حلاً سريعًا لمشكلة التطرف والإرهاب اللتين تضربان في عمقه السياسي.

وما يساعد الغرب على الوصول لأهدافه، أن خصمه السياسي بصيغته الإسلامية، فقد البوصلة تمامًا، دون أن يعرف ماذا يريد وهو

في منتصف الطريق، فما يريده من تحرير وتطهير للأرض التي يقف عليها "الغزاة" أي الغرب، لا يوافقهم عليه باقي المسلمين، ولا فكرة إحياء الخلافة الإسلامية، لدى المذهب السني، أو ولاية الفقيه لدى الشيعي، تروق لأي إنسان يعيش في عصرنا هذا، الذي سقطت فيه الأيديولوجيات وتداعت القوميات، وأصبح الحنين إلى الماضي والتراث مدعاة للتندر والسخرية في زمن العولمة والفضاء المفتوح.

فليست المعركة في نظر بعض المسلمين، معركة تحرير الأرض أو عدمها، بقدر ما هي معركة إيديولوجية في زمن انزوت فيه الأيديولوجيات، أو لنقل صراع رؤى بين منزلتي الكفر والإيمان، بحيث لا تستثني أحدًا على الإطلاق، المسلمون قبل المسيحيين، أو العكس أحيانًا.

فما الذي يحول دون تحرك الغرب إزاء هكذا خطر بات يطرق أبوابه بكل عنف وقوة؟ أهي مصالح الغرب في الشرق الأوسط، منبع التطرف والتعصب، وبذات الوقت منبع المصالح والذهب الأسود، وأيضًا منبع التاريخ ومهد الأديان؟.

والسؤال الآخر، ماذا يفعل المسلمون في الغرب، أو ماذا فعلوا؟ إذا كان الغرب غير قادر على احتمال وجودهم، أليست لهم أوطانهم التي انحدروا منها، كما للغربيين أوطانهم التي يذودون عنها من أي خطر كان؟.

فكما ينادي بعض المسلمين المتشددين من قلب عواصم الغرب، بطرد الغربيين ومصالحهم من بلدانهم الأصلية، فإن لبعض المحافظين الغربيين، الحجة ذاتها لطرد المسلمين من بلادهم التي يقيمون فيها.

فلم يعد خافيًا، أن وجود المسلمين في الغرب بات يشكل أزمة حقيقية تستعصي الحل لدى الجانبين، فليست المشكلة عند الغربيين، تتمثل في وجود المسلمين على أراضيهم، أو بسبب عدم

اندماجهم في قيم مجتمعاتهم المعاصرة، وتقوقعهم على ذاتهم وانفصالهم عن الآخر، إن ثقافيًا أو حتى لغويًا في بعض الأحيان، بل المشكلة التي تواجه الغرب اليوم، تبرز في دعوة هؤلاء المسلمين إلى مواجهة الغرب في عقر داره، والمثير للقلق، أن دعوتهم تلك لا تأتي في كل مرة من أقصى حدود الشرق، إنما من أقصى أعماق الغرب.

ما هي طبيعة الصورة التي تبلورت في ذاكرة الغرب، وهي تسمع وترى وقع تلك الدعوات تفعل فعلها الدامي على أراضيها، وتستهدف مواطنيها في الداخل ورعاياها في الخارج؟.

كما سبق أن أشرنا في غير موضع، لم تتأثر تلك الصورة المتبلورة في الذاكرة الغربية، في اتهامات المسلمين لهم بالعنصرية، ولا بتمردهم على قوانين الغرب ودساتيره العلمانية، والدليل الأبرز، توافد المسلمين على الغرب خلال النصف الثاني من القرن الماضي، حتى مطلع القرن الحالي، وإلى ما بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر التي هزت وجدانه، لكن الشيء الوحيد الذي زعزع كيانه وهز وجدانه، ما أثر بدوره على الصورة المتبلورة في ذاكرته، التفجيرات العنيفة التي نفذها مسلموه، أي مواطنه في لندن ومدريد، بوقع أشد، من التفجيرات الأخرى التي نفذها مسلمون لا صلة ولا هوية تجمعهم بالغرب، غير هوية الصراع والعداء.

غير أن واقع التعامل مع المسلمين، طرأ عليه بعض التبدل والتغير لجهة معاملة الغرب لمسلميه، فلم يعد مطلوبًا منهم اليوم، كي يثبتوا ولاءهم وانتماءهم ووطنيتهم، الكف عن كل ما من شأنه التحريض على العنف والإرهاب بين أبنائهم، بل أن يباشروا في الاندماج والانصهار في بوتقة الثقافة الغربية، الحاضن الأكبر لهم، هربًا من التخلف والاستبداد الذي ألفوه في مواطنهم الأصلية، بفعل الدين والسلطة في آنٍ معًا.